ذاهب مع الريح

أربعة أشهر قضيناها فى ربوع العالم الجديد . . .

آن أن نفكر فى الرحيل . . .

مضينا نلتمس وسيلة الانتقال إلى أوربة فعلمنا أن الأماكن فى البواخر والطائرات محجوزة كلها إلى ثلاثة أشهر . . .

لا مناص لنا إذن من البقاء ثلاثة أشهر فى بلاد العم سام . . . ثلاثة أشهر نقضيها لا مهمة لنا ولا عمل إلا محض الانتظار !

ذلك حكم قضت به علينا شركات البواخر والطوائر ، ولكن أليس لهذا الحكم من استئناف ؟

علمتنا المدرسة ونحن نتلقى علم الهندسة أن أقرب بعد بين نقطتين هو الخط المستقيم . . . . وها نحن أولاء نريد تطبيق تلك البديهية الهندسية فيما نريد من الانتقال ، فنتخذ الطريق المستقيم الرسمى فى طلب التذاكر ، فاذا أقرب مسافة بيننا وبين ما نريد هو ثلاثة أشهر طوال عراض ! . . .

وهالنا مأزقنا الحرج ، فخرجنا على تلك البديهية الهندسية نطلب ملتويات الطرق ، لعلها أقرب بعداً ، وأيسر جهداً . . .

دخلنا سوق الشفاعات والوساطات ، فخرجنا بصفقة الرابح ، وتوارت عن أذهاننا تلك البديهية الهندسية ، كأنما تلوذ بالفرار من خجل وخزى . . .

إننا على وشك السفر خلال أيام معدودات ، فلنكن على أُهبة ، حتى يبلغنا الموعد القريب . . .

وبعد أيام تلقينا نبأ من الشفيع الأعظم بأن الطائرة ستقلنا بعد أيام ثلاثة . . . فأمضينا هذه الأيام نطوف فى نيويورك طوفات عابرة ، هى تحيات وداع . . . وداع للمطاعم ، للمنتزهات ، للملاهى ، للطبيب : نتزود منه بتلك الابتسامة الخاطفة التى كانت كل ما فى جعبته حين قدمنا عليه من

تحية واحتفاء ، وهى اليوم كل ما فى جعبته من نصح وإرشاد . . . وأخيراً وداع لذلك الصديق الكريم الشارع الخامس الذى صحبنا أربعة أشهر لم نلق منه إلا صدراً رحباً ، ومعيناً عذباً يفيض بالمباهج والمسرات !

فى صبح يوم السفر ، أطللت من نافذة حجرتى ، أتطلع إلى منظر ألفته حتى ملته : أبنية سوامق ، وطريق صادر وارد ، ومتنزه فى أقصاه صغير . . .

وقفت أرنو إلى ذلك المنظر المألوف لى ، فاذا به فى هذه اللحظة ينزع عنه تفاهته وابتذاله . . .

إنه ليبدو لى كأنما يتجلى لناظرى أول مرة . . .

مفاتن جديدة ، تتوضح لى ، لم أعهدها من قبل . . .

لكأن الشارع كان يستر عنى جوانب منه ، ضن بها على . . . ولكأنه كان يدخرها لهذا اليوم ، بل لهذه اللحظات ، حتى أفارقه بشوق جديد ، وشغف مزيد !

أربعة أشهر ترادفت ، وعينى تتردد فى هذا المنظر ، دون أن آبه له ، واليوم وأنا على وشك فراقه أرانى متشبثاً به ، رانياً إليه ، أتملى محاسنه ومفاتنه ، كأنى أريد أن يحتويه صدرى ، لا يفلت منه شئ !

يالقلب الانسان ! . . . إنه يظل غافلا عن قيمة الشئ ، لا يفطن إليها إلا حين يتركها أو تتركه . . . إنه لا يكتشف الكنز إلا حين يضيعه !

أنت إذا ملكت شيئاً أهملته ، فكأنك تقول : فيم الاهتمام والتعجل ، وهو طوع يمينى ، وبين يدى من وقتى فسحة للتمتع به . . . فتنطوى الأيام بعد الأيام ، وأنت عن شيئك غافل ، حتى إذا أحسست أنك موشك أن تفقده ، تواثبت قواك من تلقاء نفسها تتشبث به ، وقد احتد شغفها ، واشتد كلفها ، وتستبين لعينيك مزايا يدهشك أنك لم تحس الانتفاع بها قبل . . .

وأقوى ماتكون هذه المزايا توضحاً لناظرك ، حين لا يستطيع الوقت أن يسعفك بفترة استمتاع وانتفاع ، فلا تملك إلا أن تدع ذلك الشئ ، وقد أتبعته من قرارة نفسك حسرات تلو حسرات !

ظلت هذه الخواطر تعتلج فى رأسى ، فكبر على نفسى أن يكون بها كل هذا التشوق والتعلق بذلك المنظر ، فرحت أسائل القلب :

ترى ماذا يكون منى إن تلقيت الآن نبأ بتأجيل موعد السفر أربعة أشهر ؟

ترى هل أتخذ فى مسلكى نحو هذا المنظر شأناً غير ما كان من شأنى معه فى أربعة الأشهر الماضية ؟

أم يتكرر ما كان منى قبل ، فأغفل عنه ، ولا أكترث له ، حتى تحين ساعة الوداع ؟

. . . ركبنا السيارة ، قاصدين مطار لاجورديا . . .

ما أشبه الليلة بالبارحة !

الطريق هو الطريق ، والمشاهد هى المشاهد ، ولكن شتان بين شعورين : شعور القدوم ، وشعور الرحيل !

دخلنا المطار ، وانتظرنا فى البهو الدائر يزخر بالناس بين رائح وغاد ، وبين جالس إلى أمتعته ، ومقبل على الميزان يستوفى إجراءاته . . .

ورحت أتطلع إلى تلك الرسوم العظيمة تزين جدار المطار . . . رسوم تسجل مراحل الطيران فى مختلف عهوده .

ولبثنا ننتظر ، وامتد بنا الوقت ، ولكن ما حيلتنا ، والجيش عليه أن يظل فى الانتظار ، وأن يكون متأهباً مرهف السمع ، يرتقب صوت النفير !

وحانت ساعة الفرج ، وسمعنا مضخم الصوت يقول :

— القاصدون باريس يتقدمون !

فتجمع الشمل ، وانتظم الصف ، وخرجنا إلى ذلك الممشى المظلل ، كأنه عريش بستان . . .

وما كدنا نبلغ أقصاه ، حتى لاح لنا « شمروخ » . . .

وقفت أتأمله لحظة . . .

أنت و « أبو الهول » صنوان ، يحمل كل منكما اسماً من مصر . . . ففيكما نفحة من الوطن . . . كلاكما فى وقفته المتطلعة شامخ مهيب ، وكلاكما فى مظهره الجميل سمح المحيا مفتر الثغر . . . إنه لفأل طيب ، فعلى بركة الله !

احتوانا صدر « شمروخ » والوقت ظهر . . .

إنه كأخيه « أبى الهول » فى وثارة مقاعده ، ونظام طاقاته ، وسائر شياته . . .

لوح النور هو هو ، يوصى بشد النطاق ، ويحظر التدخين . . .

وهذا الفتى الأمريكى وزميلته السمحة ، فى لبوسهما الرمادى الرسمى المهندم كأنهما طيفان من هوليود !

وأقفل الباب ، ذلك الفاصل بين عالم الأرض والسماء ، بل إنه لفاصل يقرر مصاير الركب ، فكأن ضريره إذ يوصد يقول :

ثمة حقبة متميزة من حياتنا قد ختمت بخيرها وشرها ، وصارت ماضياً مطوياً ، وها هى ذى حقبة جديدة تبدأ ، مابرحت مجهولة لنا ، وإن كانت مسطورة فى لوح القدر المغيب !

ورحت أتأمل تلك الفترة التى مضت من حياتى فى ذلك العالم الجديد ، وطافت بالرأس أفكار . . .

يقولون إن الحياة ماض وحاضر ومستقبل . . . ولكن فى هذا الرأى كثير من إلقاء الكلام على عواهنه دون دقة وتمحيص . . .

ليت شعرى : أى شئ هو الحاضر ؟ أين هو ؟

ماالحاضر إلا وهم مصور لو حاولت قبضه لما تحصل فى يدك منه شئ ...

إنه ليمر بك خطفاً ، وينزلق عنك إنزلاق الزئبق الوجراج . . .

فليس فى مقدورك أن تدعى الاستمتاع بشئ منه إلا أن توهم نفسك إيهاماً . . .

إن خفقة القلب ، وفيها معنى الوجود ، وسر الحياة — لا تكاد تبدأ حتى يبتلعها الماضى من فوره ، فكأنها قذيفة منطلقة يغيبها ذلك الفضاء العريض ...

وإن الكلمة ، وهى ترجمان النفس وتعبير الشعور ، لا تكاد تنفرج عنها الشفتان ، حتى يتلقفها الماضى فيدونها فى سجله العتيد . . .

ذلك الماضى تنين هائل يغفر لك أفواهه يمنة ويسرة ، وتحدق بك مخالبه من كل جهة ، مرتصداً يقظان لكل إشارة أو عبارة ، ولكل حركة أو حس ، منهوماً صديان لا يشبع مهما يطعم ، ولا يروى مهما يعب !

إنه لا يفتأ يقتطعك ويعتصرك حتى يحين وقت تفنى فى جوفه ، فتصبح نسيجاً فى جسمه ، ونقطة من دمه ، تصبح صفحة من الماضى !

وليت شعرى : أى شئ هو المستقبل ؟ أين هو ؟

سديم غامض ، مهما أنفذت فيه بصرك ، لم يستبن لك فيه قليل أو كثير . . .

مابرح هذا السديم فى طور التكوين لم يتخلق ، فهو فى ذمة أقدار محجبة تصوغه وفق هواها . . .

ليس المستقبل إذن إلا خيالا غامضاً جوهره الظنون !

الحياة ماض وحده . . .

إنه الحقيقة الثابتة منقوشة فى سجلك الصخرى لا تبلى . . .

فى مستطاعك أن تتحدث فى هذه الحقيقة حديث خبرة وعلم ، وتصفها وصف رؤية وتمعن ، ولا تملك أن تمحو منها مثقال ذرة ، وإن بذلت فى ذلك غاية الجهد . . .

ليس لك أن تستمتع بشئ سوى الماضى . . .

ليس الإنسان فى الحق إلا حشد ذكريات وذكريات !

ظل « شمروخ » يطير ، وأنا مستغرق فى تأملى ، تطوح بى الخواطر فى شتى الآفاق ، وقد ألقى النظرة بعد النظرة من الطاق ، أشهد قطع السحاب تسبح فى السماء ، تارة تلتحم وتربد منذرة بوابل هتان ، وطوراً تتقشع لتأذن للشمس أن تبعث ابتسامتها تحيينا ، وتبث فى نفوسنا الطمأنينة والرضا . . .

وفى الساعة الخامسة مساء ، هبطنا مطار جندار . وظهرت السيارة الحافلة فامتطيناها تجوس بنا دروب تلك القرية الكئيبة المنعزلة ، هذه المستعمرة الجوية التى اتخذت محطا لرجال الطائرات ومثابة استجمام . . .

وزاد هذه القرية وحشة وكآبة أن السماء كانت غائمة توالى رذاذها . . .

وبلغت بنا السيارة مقصف المطار ، ذلك المبنى الذى يماثل بيت فلاح ثرى من سادة الريف . . .

وبعد أن طعمنا تناهى إلينا أننا فى المطار نبيت ، ولكن علينا أن نكون على تمام أهبة الرحيل ، فقد يباغتنا أمر بالمضى إلى ركوب الطائرة !

وأقلتنا السيارة الحافلة إلى ما يسمونه هنالك الفندق ، وما هو إلا ثكنة وحق السماء ، لا تَجَنِّى ولا مغالاة !

فى ذلك المكان حيينا حياة الجندى فى شتى مظاهرها : حجر بلغ بها التواضع حد الشظف ، وأسرّة عجاف لا يسترها إلا ما تمس إليه الحاجة من فرش ساذجة ، وضجعة ارتقاب وتوفز ، نتوهم فى الفينة بعد الفينة أننا مزعجون بطلب الرحيل !

صحوت فى الخامسة صباحاً ، كأنما عز على نفسى أن يوقظها آمر مسيطر. فاستيقظت هى ، تمثلا بقول القائل :

« بيدى لا بيد عمرو ! »

لا جديد فى شأن الرحيل . . . الجو عابس ، وبين السماء والأرض بريد لا ينقطع من رذاذ ، فكأنه يحمل إلينا رسالة الانتظار !

عدنا إلى مبنى القصف ، لا عمل لنا إلا أن نطعم ونستريح وننتظر . . .

من أسس الرحلة الجوية أن ننتظر ، وأن نروض أنفسنا دائماً على هذا الانتظار !

أمضيت الوقت على تلك المقاعد الوثيرة ، أنقّل بصرى فى الحاضرين ، وما فتئ الرذاذ ينقر زجاج النوافذ . . .

لكأننا نحن طلاب « شمروخ » فى جزيرة موحشة ، قذفنا حطام سفينة محطمة إلى الشاطئ ، فبقينا نرتقب النجدة !

وكنت كلما برمت بالانتظار مضيت أسائل ضباط المطار ومن إليهم من الأعوان ، ولكن لا جديد !

ليس فى جعاب المسئولين من الجواب إلا ابتسامة غامضة ، وإيماءة خاطفة !

وأخذ الصحب يتجمعون للعب بالورق ، وانعقدت سحائب اللفائف ، وطالعتنا الكؤوس والأقداح تروح ملأى وتغدو فارغة . . .

إنى لأغبط هؤلاء اللاعبين ؛ فلقد اندمجوا فيما بين أيديهم ، فأنساهم كل شئ . . . نظراتهم مشرعة إلى الورق ، كلماتهم عاجلة يتطارحونها تارة فى ضحك وتارة فى عبوس ، حركاتهم آلية وهم يوزعون الورق فى مهارة كمهارة الحواة والمهرجين . . . إنى لأحسبهم قد سُحروا صوراً كتلك الصور الأنيقة الملونة التى تحلى ورق اللعب ، صور الملوك عليهم تيجان مذهبة ، والصبايا تزدان بالزهر الناضر . . .

ضجرت بهؤلاء اللاعبين فى موقف جد . . . فنهضت أتلفت حولى لأشغل نفسى بشئ ، فألفيت نثاراً من المجلات ، فأقبلت أقرأ : ثمة مقال تلوح طرافته ، قصة صحفى أمريكى يصف ما شهد فى زورة لإحدى المناطق الألمانية الخاضعة للاحتلال الروسى . . .

إن الصحفى ليطنب فى الإشادة بما يلقى به الروسىّ ضيفه من كرم وحفاوة ، إنه لكرم يذكرنا سماحة الشرق والعرب فى كتب الأولين ، أولئك الروسيون يقيمون مأدبة لذلك الصحفى الأمريكى ومن معه فى التاسعة صباحاً ، مأدبة تزخر باللحوم والألبان والأشربة ، فلما أكلوا حتى أتخموا أخبرهم مضيفهم القائد الروسى أن ليس هذا إلا تصبيحة وعجالة ، فأما الفطور التام فهو فى الحادية عشرة . . . فى الحادية عشرة !

أمامك ساعتان أيتها المعدة لكى تهضمى ما أُلقى إليك من لحم ولبن وخمر ، وتشمرى لما تفجؤك به المائدة الجديدة بعد . . .

وقد مضى اليوم سلسلة من المآدب موصولة الحلقات ، وكان مسك الختام عشاء حافلا فى الساعة الأولى بعد منتصف الليل !

أما ألوان الطعام فكثيرة ، لا ينتهى لصحافها عرض . . . وكانت معارك الطعام تدور على نغمات الموسيقى ومطايبات الأحاديث !

أوربة اليوم بين منتصر ومنهزم ، أما المنتصر فيقضى يومه يفكر متى يهضم ما أكل ليستزيد ، وأما المنهزم فيقضى يومه يفكر متى يتبلغ بشئ يسكت به سعار الجوع !

حقا أن أوربة اليوم مجال لمجاعة شاملة ، وأن هذه المجاعة لتتمثل فى نهم المنتصر ، كما تتمثل فى حرمان المهزوم !

كان طريفاً أن يجرى الصحفى الأمريكى على أسلوب الأرقام والإحصاء فى التعقيب على تلك الضيافة ، وقد خرج من الحساب بأنه أنفق ٥٠ فى المائة من يومه آكلا ، و٣٠ فى المائة نائماً ، و١٥ فى المائة متنقلا ، و٥ فى المائة مقبلا على مهمته المجيدة التى رحل من أجلها فى همة ونشاط !

وأنبرى مضخم الصوت يقول :

— ركاب « شمروخ » . يستعدون للسفر !

فألقيت بنظرة على الساعة فى معصمى ، فاذا بها قبيل السابعة مساء !

غبنا جوف « شمروخ » واعتلى بنا صهوة الرياح يستقبل المحيط ، ويتأهب لاجتيازه قدماً لاريث ولا هدوء . . .

وكان الضباب ما برح مركوماً ، والرذاذ يداعب زجاج الطاقات ، ولكن « شمروخ » مضى يشق ذلك الحجاب الثقيل المعتم ، ويسمو إلى آفاق الصفاء

والنور ، وإذا بنا نلمح تحتنا بساطاً ناصع البياض ، كأنه غوارب موج ، أو بطاح مترامية من جليد لا يدرك نهايتها الطرف ، وعلى حواشى السماء يزهو وشى أرجوانى من صبغة الشمس فى لبوس المغيب !

كان « شمروخ » رشيقاً فى طيرانه ، فلبثنا نعبر المحيط فى سكينة وأمان ...

وتراخت الأعصاب بعد توتر ، فتهالكت على ذلك المقعد الطبع ، وقد أردته أن يكون فراشاً فكان . . . وجذبت الدثار على ركبتىّ ، وأسلمت للنوم جفنىّ ، وسرعان ما استجاب لى السبات !

وفى منتصف الخامسة صباحاً صحوت من نومى ، فألفيت الطائرة على مقربة من مطار شانون موشكة على التصويب . . .

كان أول صنيع لنا فى مطار شانون أن نصلح من ساعاتنا ، فتقدمنا بها نحواً من ثلاث ساعات . . .

أنت فى رحلات الجو كما تدين تدان ! . . .

هذه ساعات من حياتنا نخسرها اليوم ، وما هى إلا تلك الساعات التى استردناها يوم ذهابنا إلى العالم الجديد !

قضينا ساعة فى المطار ، تناولنا فيها طعام الإفطار ، وعدنا إلى الطائرة نستأنف الارتحال إلى باريس . . .

وما هى إلا ثلاث ساعات حتى كنا فى مطار عاصمة الفرنسيين . . .

ها نحن أولاء نئوب إليك يا باريس بعد غيبة أربعة أشهر ، فكيف أنت ؟ وما حالك الآن ؟

لن تكونى لنا إلا محطة استبدال مطية بمطية ، فنصيبك منا نظرات المتعجلين ومرور الكرام !

كنا نحسب أننا سنقضى فى باريس يوماً أو بعض يوم ، فاذا بها تأسرنا عشرة أيام ثقال !

إنى لأسائل نفسى الساعة :

كيف قضيت تلك الأيام ؟

لقد كانت مثار إرهاق و إجهاد ، لم نطعم فيها الراحة إلا غراراً ، جو أحمق ، كأن به جنّة ، لا قرار له على حال ، فمرة هو قيظ متلهب ، وحيناً هو أهوية وأمطار !

وهذا الكد بين مكاتب العملة وشركات الأسفار . . .

أعصاب متوترة ، ونفس ثائرة ، وحيرة فى موعد الرحلة ووسيلة الانتقال . . .

هل نسافر بالقطار أو بالطائرة أو بالسيارة أو مشياً على الأقدام ؟ يعلم الله !

فى تلك الأيام المضطربة التى عشناها كان لزاماً علينا أن نصطنع الحذر الشديد والتحيل الدائب . . .

وقد يغدو المرء على الرغم منه مخاتلا كذوباً ، فأوضاع الحياة ثمة لا تعين على حق وصدق وتصريح !

إن القيم الأخلاقية لتبدو لنا الآن غريبة الوجه ، لا تلائم ملابسات العيش وسوق الحياة . . .

هذه القيم تلين وتتلوى إزاء ما تقتضيه الحال الراهنة فى ذلك العهد العجيب . . .

على أن القانون يتجنى على الناس فيريدهم على الخضوع لسلطانه ، وإلا وصمهم بوصمة المروق على الأوضاع . ولو أنصف القانون لتبين له من أعذار هؤلاء الخارجين عليه ما يدعوه إلى الرفق والإشفاق !

شد ما يحلو لنا فى فسحة الحياة وطمأنينة العيش أن نتلهى بالحديث عن المخطئين المتجوزين الذين يتمدون حدود العرف والقانون والأوضاع ، وأن نتعوذ منهم كل التعوذ ، وأن نرميهم بمرذول النعوت ، وما ينبغى لأحد منا أن يأذن لنفسه بهذه الجعجعة والاستطالة ، حتى يرى نفسه قد باشر تلك التجربة ، وأحاطت به تلك الملابسات ، لينظر : أمستطيع هو حقاً أن ينجو من سلطانها عليه ، فان كتبت له النجاة ، وتيسر له التماسك والتمنع ، كان فى حل من أن يندد بمن شاء من صرعى الخطايا والذنوب !

تبدو لنا باريس بعد أربعة أشهر ، كما هى باريس التى مررنا بها من قبل ، إلا فيما ندر من الظواهر . . .

ولعل مؤتمر السلام الذى اختار مقرّه فى باريس قد أعان على أن تظهر المدينة على نحو لا يخلو من بهاء !

فقد تكاثرت سيارات الأجرة ، وعمرت الأندية بالأجانب من أعضاء المؤتمر ومن إليهم من أعوان وصحفيين وزوار . . . فكنت تلمح فى باريس أطيافاً من روائها فى ماضيها البعيد !

وربما كان أوضح معالم باريس هو سوقها السوداء . . . ولكنها اسم على غير مسمى ؛ فقد احتلت كل مرافق الحياة ، وأصبحت هى السوق الحرة التى لا مناص منها لمن يشترى ويبيع !

هذه السوق السوداء تتغلغل فى كل شئ ، وتنشب أظفارها فى كل مكان ، حتى إنها لتسلل إلى مؤتمر السلام !

فى المجالس الرسمية سوق بيضاء تتناقل فيها الخطب والمشاورات وتتداول الآراء ، ولكن بخطا بطيئة لا تبلغ غاية ولا تصيب هدفاً . فالبضاعة فى تلك المجالس الرسمية قليلة تافهة ، والعملة نادرة ، ولكن خلف هذه السوق الحرة الجامدة سوقاً سوداء رائجة البضاعة ، متوافرة العملة ، تعقد فيها الصفقات الكبيرة من الاتفاقات والمحالفات والخطط والمكايد ، على حساب الشعوب التى ألقيت إليها كؤوس من خمر المبادئ الرفيعة والمثل الانسانية تظل بها ساهية لاهية !

ويوماً وقع بصرنا على صديقنا الحوذى المخمور ، وهو على عرشه المتزلزل وارم الأنف ، فسألناه جولة فى غابة بولونيا . . .

إنه هو هو فى دكتاتوريته الحمقاء ، يفرض الأجرة كما يشاء . . .

وراحت المركبة تكركر بنا فى الطريق . . .

لم ينل منجل الحرب من غابة بولونيا إلا قليلا قليلا . . . ولكن شتان ما بين الغابة أمس واليوم ! . . . كأنى بها طريحة المرض ، مجهودة الأنفاس ، يعودها الناس جموعاً وفرادى . . . وإن نظرة واحدة إلى وجوههم وسماتهم وهيئاتهم لتوحى إلينا بما يكابدونه من إقفار وإجداب وعبوس . . .

إنه حقا لعراك عنيف ذلك الذى يعتلج اليوم فى صدور أهل باريس . . . إنها لحرب أخرى أشد من الحرب الماضية هولا ، تشنها فرنسا على البؤس والفاقة والهزيمة !

ثمة ابتسامات تتخايل على الوجوه ، ولكنها ابتسامات مجتلبة مزوّرة تشف عن هموم وحسرات !

وبدأ صديقنا الحوذى المخمور يتحدث ، ويسترسل فى الحديث ، كأنه يناجى نفسه . . . وكنا على مقاعدنا وراءه نصغى . . .

كان يشكو ويتذمر ، وينتحل المعاذير من دكتاتوريته فى الغلاة فى

الأجور ، وكأنما يأخذ علينا استكثارنا لما فرض من أجر ، على حين أننا لم نساومه فى شئ ، ولم نبد أقل اعتراض !

إنه ليدافع عن نفسه ، معاتباً مرة ومغلظاً فى القول أخرى . . . .

إن روح التمرد تشيع فى نفسه ، ولكن على أى شئ يتمرد ؟ أمن أجلنا وقد أذعنا لمطلبه ؟ إنه ليتسخط على الزمن ، على ذلك الغلاء المتمادى . . .

لقد استرسل فى الكلام جريئاً محتد اللهجة . . . إنه لقول جرئ وايم الله !

حسب ذلك المأفون أن عهد التحرر من ربقة الألمان راجع إليه بفيض من الخير غزير ، فروّعه ألا يتحقق من ذلك شئ . . .

إنه لا يتورع عن أن ينرحم على ذلك العهد السابق البغيض . . . كان فى ذلك العهد يملأ كرشه ، ويحصل على النبيذ بثمن قليل ، فيطعم هنيئاً ، ويشرب مريئاً !

بهذا القول كان يثرثر ، والعهدة عليه ، أخزاه الله !

لقد كانت عربة الأجرة هى الوسيلة الأولى للانتقال فى باريس عصر الاحتلال ، وكان سائقها « سيد الموقف » غير منازع ، لم يكن أمامه منافس فى الميدان ، فراح يصول ويجول وقد خلا له الجو . فكيف لا يتغنى بمغانم تلك الأيام ، وكيف لا يتبعها واسع الرحمات !

لم يكن الحوذى نفسه هو الذى يتكلم ويتندم . وإنما كان بطنه الخاوى هو الذى يعوى !

انسرحت أفكر فيما يقول الرجل . . .

أهكذا تذوب الوطنية فى أتون الأحشاء المتوقد ؟

أهكذا تتحلل المثل العالية فى قِدْر الجوع هذا التحلل الزرى ؟

ليس البشر جميعاً قديسين وأصحاب مثل رفيعة ؛ فان الدنيا تموج بتلك الحشرات التى تعيش لتأكل حتى تنبعج البطون !

ومهما يكن من أمر ، ففى حديث هذا الرجل معنى يجب ألا يكون نصيبه منا الغفلة أو الإغفال . . .

ليس لنا أن نزدرى فلسفة البطون . . . إن اللقمة لها مكانتها المرموقة فى تاريخ البشرية ، وإنها لن تفقد هذه المكانة على مر الأحقاب والدهور !

إنى لأرى فلسفة البطون تتدسس إلى كل شئ ، و إنى لأراها تدفع بالأفراد كما تدفع بالشعوب !

ليس الجوع أو خوف الجوع وما يتفرع عنه من التشهى والنهم والجشع إلا المحراك الأول فى قيادة الأمم وسياسة الدول ، وقد تحولت تلك الكلمات فى معجم الساسة إلى كلمات « المجال الحيوى » و « النافذ على البحار الدافئة » و « المواقع الاستراتيجية » و « حرية مسالك المياه » وما إليها . . . وتفسير هذه الكلمات الجديدة فى معجم الحقائق المستورة هو معدة طاوية خاوية تبحث عما يملؤها ، فان امتلأت اشتد كلبها وتطلبت المزيد ، وكأنما تخشى أن يعضها سعار الجوع من بعد ، فهى تتمادى فى الأكل لا فتور ولا وناء !

وقد أدرك بعض عقلاء الساسة أثر البطن فى حكم الشعوب ، فاستبدلوا بالحكمة التليدة : « جوع كلبك يتبعك » تلك الحكمة الجديدة « أشبع كلبك يحبك ! »

فالحاكم الحصيف الذى يريد أن يسيطر وأن يتأمر ويأمن الخروج والعصيان ، يتوخى دائماً إشباع البطون ؛ فالتخمة تورث الكسل والفتور والتبلد ، وليس بعد امتلاء البطون إلا الجمود والخمود ، فيخبو الذكاء ، وتتعطل الفطنة ، وتستحب الراحة والدعة والاستسلام . . .

لا طاقة لبطين على ثورة ، ولا صيحة لمتخم وخيم !

تركنا باريس لحوذيها يوازن بين الحرية والرغيف . . . !

وأقلتنا الطائرة إلى جنيف بعد طيران ساعة ونصف ساعة . . .

رحلة كان مقدراً لنا أن يقطعها بنا القطار فى عشر ساعات ، ولم يكن لنا بدّ من أن نمضيها وقوفاً فى ممرات القطار مرهقين بالزحام بين كومات من الأمتعة والأناسى ، لا نكاد نظفر بكسرة من خبز ، أو جرعة من ماء !

بورك فيك يا نسور الجوّ من خلق الإنسان ، و إن كانت عثراتك لا تقال !

محمود نجيب